ورقة مقدمة إلى ندوة الأزهر حول: "التجديد في الفكر والعلوم الإسلامية".

أ.د/ طه جابر العلواني

أولا: أشكر فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر على تفضله بدعوتي للمشاركة في هذه الندوة الموقرة.

ثانيًا: عنوان هذه الندوة المباركة يدل على همٍ كبير يحمله الأزهر ويريد أن يشاركه بعض أهل المعرفة في تناوله من جوانبه المختلفة. وهو أمر في غاية الأهميَّة في عصرنا هذا الذي لم يشهد عصر قبله ما يشهده من انفجار معرفيّ وصراع فكريّ وثقافيّ وحضاريّ فمهما كانت الحروب والفتن والمنازعات وآثارها في حياة الناس فإنّ الصراع الفكريّ والثقافيّ بقي له موقعه المميز في قائمة الجدل والصراع. بل تعتبر الأفكار والثقافات والأسس التي تبنى عليها الحضارات وسائل وقواعد لانطلاق كثير من الحروب الباردة والساخنة والأهداف الكبرى التي تتمنى البشريّة لو وصلت إليها وفي مقدمتها السلام والأمن والاستقرار التي تحتاج في مقدمة ما تحتاج إليه: أمن فكريّ ومعرفيّ ثقافيّ حضاريّ بالدرجة الأولى، وما لم يتحقق ذلك فنستطيع القول بأنّ من المتعذر أن تصل البشريّة إلى السلام والأمن والاستقرار والطمأنينة؛ ولذلك فإنّ الالتفات إلى هذه الناحية له أهميّته وخطورته وآثاره في مختلف جوانب الحياة، فهو التفات من أهله إلى مستحقه، بإذن الله.

التجديد:

إنَّ "التجديد" أمر أصيل في معارفنا وثقافتنا وديننا، فإنَّنا نؤمن بتعرض كل شيء –ماعدا الله (جلّ شأنه) –لقواعد وآثار وسنن القِدَم والبِلى؛ لأنّ الزمن سائر إلى النقطة التي يفنى بها كل

شيء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام؛ لكن لابد من مقاومة ذلك بسنن إصلاح ما رَثّ وتجديد ما تقادم حتى يبلغ كل شيء أجله.

وحين تلقيتُ دعوة الإمام الأكبر–حفظه الله– تبادرت إلى ذهني عدة أسئلة أهمها:

السؤال الأول: حول مدى أصالة ومشروعيّة التجديد في الفكر وفي هذا النوع من المعرفة المنقولة المتداولة؟

والسؤال الثاني: هل من نماذج سابقة في تاريخنا لهذا الذي دُعينا إلى التداول فيه؟

السؤال الثالث: ما الوسائل التي يمكن أن نجدد فيها فكرنا ومعارفنا الشرعيّة أو النقليّة؟

أمَّا جواب السؤال الأول فإنّ القرآن المجيد يقصّ علينا من أنباء الرسل ما ثبَّت به فؤاد المصطفى (صلى الله عليه و آله وسلم) ويثبّت به أفئدة المؤمنين بعده وتتابعُ الرسل يتضمن فيما يتضمنه توكيدًا على الثوابت المشتركة في رسالات الرسل وتجديدًا لما طال عليه الأمد فقست قلوب الناس وصاروا في حاجة إلى التجديد والتذكير. ولعل نموذج سيدنا عيسى مع رسالة سيدنا موسى (عليهما السلام) مثال واضح للتجديد، فالسيد المسيح جاء ليعلم بني اسرائيل روح الرسالة ومقاصدها ويخرجهم من إطار نسيان المقاصد والتشبُّث بالأشكال والرسوم الظاهرة والحرفيّة؛ ذلك لأنّ الأفكار والمعارف إذا طال الأمد عليها وقست القلوب وتغير الزمن تحدث بينها وبين حملتها والمستفيدين الأوائل منها ثغرات لابد للأجيال المتعاقبة من غلقها وإلا فستنعدم الاستفادة منها. و بنو اسرائيل حين طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ونسوا حظًا مما ذكروا به صاروا يحملون الكتاب الذي نزل هدى ونور حملا حماريًا لا حملا إنسانيًا ؛ولذلك قال (جلّ شأنه)﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة:5)، و أُغريت بينهم العداوة والبغضاء وانتشر فيهم التمزق والاختلاف وضعفت شوكتهم وانهارت دولتهم وتفككت روابطهم. وبعد أنّ رفضوا

الاستفادة بتجديد سيدنا عيسى ورسالته التجديديّة ظلت حالهم على ما كانت عليه بل ازدادت سوءًا ولما أذن الله بنزول رحمته العامة الشاملة بابتعاث خاتم النبيين وآخر المرسلين (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) محمد بن عبد الله استكبروا وأبوا أن يؤمنوا به وهم يعلمون أنه رسول الله ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم فزادت غلظة أكبادهم واشتدت انحرافاتهم وتجاوزوا حدود الله (جلّ شأنه) وتمردوا على شريعته.

أمّا نحن المسلمين فقد أنعم الله علينا وعلى البشرية كلها بأن تولى بنفسه وبذاته العليّة حفظ الكتاب الذي أنزل ولم يكله إلى أحبار وربّانيّين أُستحفظوا على كُتب الله السابقة فضيَّعوها، وأعفى نبيه وجيل التلقي وسائر المنتمين لهذه الأمة من سائر المهام المتعلقة بهذا الكتاب، فمن حيث الجمع تكفل به (جلَّ شأنه) وقال:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ﴾وكذلك البيان فقال (جلّ شأنه)﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ بل تكفل بحفظه في قلب نبيه وحفظ قلب نبيه من نسيان شيء منه، فقال (جلّ شأنه)﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لأنّ هذا الكتاب هو الكتاب الخاتم حامل الرسالة الخاتمة والمصدق المهيمن على كل ما سبقه من كتب وصحف ورسالات، فلم يكل (جلَّ شأنه) شيئًا من شأنه إلّا إلى ذاته العليّة.

وقد تشكلت أفكارنا منذ جيل التلقي ومعارفنا على اختلافنا حول هذا الكتاب، فالعرب أمُّة لم تعرف قبل هذا الكتاب علمًا ولا تشريعات، والكتابات القليلة التي أتقنها بعض الكاتبين العرب ارتبطت بالبيئات التجاريّة فلم تكن تتجاوز شيئًا من الحساب والأنساب وبعض الأماكن الجغرافيّة المعروفة وشيء من التاريخ والأيام وكل ذلك كان يجري في إطار ثقافة شفويّة يجري تناقلها بين الرواة والقصاصين ومن إليهم، فلمّا نزل القرآن المجيد على قلب رسول الله (صلى الله عليه و آله وسلم) صار الكتاب المنزل والرسول المنزّل عليه الكتاب مصدري العلم والمعرفة "العلم: قال الله قال رسوله" وكان سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يعمل على تلاوة الكتاب

عليهم وتعليمهم إياه وتعليمهم كيفيّة استقاء المعرفة منه واستخراج حِكَمِه وأحكامه وتزكية الناس به، ولم يكن يعلّمهم عشر آيات إلا ويعلّمهم كيفيّة العمل بما جاء فيها وكيفيّة استخلاص العبر والدروس مما لم يشتمل على أحكامه فكان يعلّمهم العلم والعمل معًا وبعد انتقال رسول الله (صلى الله عليه و آله وسلم) إلى الرفيق الأعلى واكتمال نزول القرآن الكريم وجد جيل التلقي نفسه على محجة بيضاء ليلها كنهارها وبعد وفاته (صلى الله عليه و آله وسلم) حاول جيل التلقي أن يكون مثله – أيّ مثل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)– في تعليم الأجيال الطالعة لكن الفرق كبير بين ذكر يتلوه عليهم رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وبين ما ينقله إليهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله وسلم).

ثم بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا ودخلت أمم كثيرة وانتشر الصحابة في بقاع الأرض، ونقلوا ما تعلموا وبدأت تتكون علوم ومعارف وبدأت اللغة تدخلها نتيجة كل تلك التحولات لغات وألفاظ أخرى وانتشرت في بادئ الأمر معرفة غير مدونة بقيّت فترة من الزمن شفويَّة. وبدأ عبد العزيز والد عمر في سنة 83هـ يجمع السنن في مصر حين كان واليًا عليها وجاء بعده ولده الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر بجمع السنن والآثار، وعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) عند النظر في أمره للزهري وغيره بجمع السنن كان قد أقلقه ظهور الاختلافات الفقهيّة بين المسلمين، وجمع كلمتهم وهو الخليفة الذي نجح في رأب الصدع بين جمهرة المسلمين والفرق التي نشأت واستعمل بعضها العنف ضد الدولة وضد الآخرين فكأنّه أراد جمع كلمة المسلمين على فقه السُنة، ففقه السنن بما فيه من إلزام ونسبته إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه و آله وصحبه وسلم) كان كفيلًا بإذابة أهم الاختلافات الفقهيّة بين المسلمين وجمع كلمتهم، لكن المنيّة عاجلته فلم يستطع أن يستكمل مشروعه الإصلاحيّ هذا. كما لم يستطع استكمال مشروعه في تذويب الاختلافات الكلاميّة وإعادة بناء

وحدة الأمّة، واتخذ التجديد بعد ذلك منحى فقهيًا وحملت أحاديث التجديد على الفقه والفقهاء فعدّ الإمام الشافعيّ مجدد القرن الثاني وابن سريج مجدد الثالث وهكذا.

تدوين المعارف:

لقد رأت الدولة العباسية وهي ما تزال في عنفوانها لم يمض على قيامها أكثر من أحد عشر عامًا أن تدون سائر العلوم الموروثة تدوينًا رسميًا فبدأ التدوين الرسميّ لعلوم التفسير والحديث وأصول الفقه والفقه سنة مائة وثلاثة وأربعين هجرية وبقيت تنمو وتتكاثر وتتمايّز حتى استوت على سوقها في القرن الرابع الهجريّ ولم يكد القرن السادس الهجري ينقضي إلا بعد أنّ بلغت العلوم النقليّة المتداولة حوالي مائة علم؛ فكتب الإمام الرازي فيها موسوعتين للتعريف بتلك العلوم والمعارف وبيان مبادئها، ومن المعلوم أن الإمام الغزالي قد حمل همّ تجديد تلك المعارف في عصره فعلى مستوى المنهج أدخل المنطق في مقدمات تلك العلوم والمعارف وكتب فيه كتبًا كثيرة معروفة ومتداولة منها: "معيار العلم" و "القسطاس المستقيم" كما كتب كتابه الموسوعيّ المعروف الشهير بـ "إحياء علوم الدين" والعنوان يشير بوضوح إلى رؤية الإمام الغزالي وهي رؤية تقوم على أنّ هذه المعارف تحتاج إلى ما يردّ إليها فاعليّتها وطاقاتها العمليّة وإعادة روحها ومقاصدها إليها حيث شعر –مثل كثير من معاصريه– بالخوف من أن يتحول المسلمون إلى مثل ما أصاب من سبقهم من بني اسرائيل بحيث يحملون كتابهم الكريم، وفي القرن التالي له وجدنا محاولة أخرى عند أبي شامة المقدسي الذي كان مؤرخًا وفقيهًا أصوليًا في الوقت نفسه وقد كتب كتابه المعروف "(المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول)" ثم كتب كتابا صغيرًا في حجمه هامًا في دلالاته وهو "الرد إلى الأمر الأول" ملخصه نشر ضمن الرسائل المنيريّة التي جمعها محمد منير الدمشقيّ وطبعت في أوائل القرن الماضي وحمل الكتاب دعوة صريحة دعا

فيها المسلمين إلى العودة إلى ما كان عليه جيل التلقي من حصر المرجعيّة في كتاب الله وهديّ رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) ومنهجه في تلاوة الكتاب وتعليم الناس آياته واستنباط حكمه والعمل به لإيجاد الإنسان المسلم المزكّى بكتاب الله وبالهدي النبويّ. ثم جاء الإمام الرازي فجعل تفسيره "مفاتيح الغيب" تفسيرا موسوعيًا ربط فيه أكثر فنون المعرفة التي اطلع عليها في الفترة التي عاشها ما بين 543 إلى 606هـ. وقد قام بن تيميّة وتلامذته في القرن الثامن بمحاولات للبناء على ما قدّمه السابقون والدعوة إلى تصحيح مسارات بعض المعارف. وبعد ذلك جاء في مقدمة بن خلدون القاضي المؤرخ ليقدم أطروحة كاملة استهدفت ربط هذه العلوم بعلوم العمران وبيان معالم كثيرة يمكن البناء عليها في تجديد تلك المعارف وإعادة صياغتها، حيث قال في مقدمته: "وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنَّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث. فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها." ولايمكن نسيان جهود ابن حزم وابن رشد في هذا المجال فالمراجعات لغرض التجديد في الفكر وفي المعرفة أصيلة وتجاربها عديدة ولا غرابة ان يتصدر الأزهر ورجاله هذا المجال المبارك لكي يأخذ مساره السليم الصحيح.

وقد حاول كثيرون من شيوخ الأزهر بدءًا من الشيخ العطار ومرورًا بجهود محمد عبده والمراغي وآخرين تحقيق هذا الهدف وكان لكل منهم نصيب في تجديد أو مراجعة أو إعادة قراءة لبعض هذه المعارف. إنّ كل تلك المحاولات قد جرت في إطار الداخل الإسلامي دون ضغوط من حضارة غالبة أو انحرافات خطيرة يراد ايقافها أو توجهات أساءت فهم بعض المعارف وأساءت طرائق الاستجابة لها.

ولم تنقطع هذه الجهود أو تتوقف إلا في عصور تخلف وتراجع أصيبت بها الأمّة نتيجة ظروف عديدة وعوامل مختلفة.

كل تلك المراجعات كانت تجري برد هذه المعارف إلى أصولها ومحاكمتها إلى مرجعيّة القرآن الكريم والتصديق عليها والهيمنة بالقرآن الكريم على جوانبها المختلفة حتى تعود إلى العطاء السليم والنتائج المتميزة ثم الرجوع إلى جيل التلقي وسنن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التي سددت أفهامهم وربطت بينها وبين قراءة الوحي وقراءة الكون.

كانت المراجعات تجري بالمناهج التراثية وبأدوات التراثي نفسها. ولأول مرة نُدعى إلى التجديد والمراجعة فيظل هيمنة حضاريّة مغايرة تجعل عمليّة المراجعة شاقة جدًا ومحفوفة بالمخاطر وتجعل الكثيرين ينظرون مسبقًا إلى المراجعات نظرة شك وارتياب. لكنَّنا حين نقوم بذلك بمنهج واضح وأسس معرفيّة سليمة وتحت مظلة الأزهر الشريف فإننا سوف نطمئن الأمّة إلى صحة ما نقوم به وسلامته وضرورته وأنه لن يؤدي إلا إلى تنقيّة التراث من أيّة شوائب شابته من خلال قصور البشر وضعفهم وعجز غالبيّتهم عن الوصول إلى ما يخدم التراث ويجنبه انتحالات المبطلين ومعاول الهدّامين وتحريفات الجاهلين وتشويهات الحاقدين فالبعمل الجاد المتصل لتصحيح مسار الفكر والمعارف النقليّة مستعينين بالله (جلّ شأنه) مهتدين بسنة رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وسير من حمل تراثنا، وعرف مناهجه وسيرورته حتى وصل إلينا.

فليس غريبًا أن ينهض الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب الذي أكرمه الله (جلّ شأنه) بتحمل مسئوليّة الأزهر في هذه الظروف الصعبة لكنّه بفضل الله على إرث ثريّ وغنيّ يُمكّنه (إن شاء الله) مع المخلصين من أهل العلم والفكر والفضل بالبعث والتجديد في الفكر الاسلامي والمعرفة الإسلاميّة والوصول بها إلى بر الأمان وتحقيق الأهداف المرجوة وتجديد المعارف بنور كتاب الله وهديّ رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) سائلين العليّ القدير أن يوفق الإمام الأكبر ومن هيأه الله للتعاون معه بتحقيق هذا الهدف السامي والقيام بأعباء هذه المهمة الجليلة.